

الرقيق

مصادرهـن

من الثابت أن العرب عرفوا الجوارى قبل الإسلام ، وأنه كان لأثرياء قريش وزعمائهم بعض منهن ينصرفن إلى الغناء أو إلى الأعمال التي قامت بها الجوارى بعد ذلك في قصور المسلمين .

كان العربي عهدئذ ينظر إلى المرأة كما ينظر إلى أى متاع آخر من ريش أو ما شية أو مال . فإذا غزا جاره ، وتغلب عليه ساق أنعامه ، وحمل ذراريه ونساءه ، وجعل الجميع في خيمته ، وتصرف بهم كما يتصرف بالأسلاب الحربية . ونظر بعض الأعراب الجاهليين إلى جميع نساءهم الحرائر والمستعبدات نظرة استصغار واحتقار . فإذا توفي الوالد استولى ابنه الأكبر على نسائه ، وأصبحن له زوجات . غير أن الأم التي أنجبته كانت تنجو من تنفيذ هذه الشريعة الجائرة . وكان زواج المتعة شائعاً بين رجال القوافل بنوع خاص ، فيجمع الرجل في خيامه أو منزله ما شاء من النساء دون عد ، ويزور عنهن عند ما يريد ، أو تصرفه المرأة

بتحويل باب خيمتها ، فيدرك الزوج أن العهد انبر بينهما ،
فيسعى إلى خيمة أخرى .

قامت الفتوح التي رافقت ظهور الإسلام مقام الغزوات
في الحصول على السبايا . فإذا تغلب العرب على عدوهم في ساحة
القتال ، ودخلوا دياره عنوة وقهراً ، ولم تعين شروط الفتح
يعتبرون البلاد المفتوحة ملكاً لهم ، بما فيها من أرض ومحاريب
وشيوخ وأولاد ونساء . يتصرفون بهم تصرف المالك
بملكه . فكل من يقع في أيديهم من بنات المحاريب ونسائهم ،
وإن كان ، من الأسر المالكة ، يصبحن إماء لهم ، ينقلونهن
إلى بلادهم مع الأسلاب ويتوزعن بينهم ، ويحولنهن إلى
منازلهم حيث يصرفونهن إلى ما يشاؤون من الأعمال . وقد أسر
بعض الجند العربي الزاحف على بلاد فارس في أيام عمر بنات
يزدجرد بن شهر يار بن كسرى ، وسبوهن وأرسلوهن مع من أرسلن
إلى المدينة . فأمر الخليفة ببيعهن . فأعطاهن إلى دلال ينادى
عليهن في السوق . وكان من عادة النبلات الفارسيات أن
يحجن وجوههن . فكشف الدلال عن وجه إحداهن فلطمته
لطمة شديدة على وجهه ، فصاح : واعمره ! ورفع أمرها إلى
الخليفة ، فدعاهن إليه ، وأراد أن يضربهن بالدرية . فحال على
دونهن قائلاً : يا أمير المؤمنين إن الرسول قال : أكرموا عزيز

قوم ذل ، وغنى قوم افتقر . إن بنات الملوك لا يبعن ، ولكن قوموهن . فتقومهن وأعطاه أثمانهن ، وقسمهن بين الحسين بن علي ، ومحمد بن أبي بكر ، وعبدالله بن عمر ، فولدن ثلاثة من مشاهير العرب هم علي بن الحسين المعروف بزين العابدين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبدالله .

منذ ذلك العهد أخذ عدد الجوارى يزداد حتى بلغت مئات الألوف . وكان لدى القواد والأمراء والعمال العشرات منهم ، ولا سيما بعد أن أخذ العرب بالانسياح غرباً نحو شمالي أفريقيا والأندلس . فقد بلغت غنائم موسى بن نصير فاتح المغرب سنة ٩١ هـ ثلاثمائة ألف رأس سبي ، بعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، أى ستين ألفاً^(١) وقيل إن موسى هذا عند ما جاء دمشق استقدم معه ثلاثين ألف عذراء من الأسر القوطية النبيلة^(٢) .

رحلات النخاسين

من الأسباب التي كانت تدعو العرب إلى الفتوح والاندفاع وراء حدودهم أخذ السبايا والرجوع بهم إلى مقرهم ، وليس في نيتهم الاستقرار حيث تدافعت جماعاتهم الزاحفة . ولعل دخولهم

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١١٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٧٢ .

جنوب فرنسا ، وكثيراً من المعارك التي دارت بين العباسيين والحمدانيين وبين الروم كانت من هذا النوع . يلاقى الفاتحون سبياً عظيماً حتى يضطرب أمرهم ، فلا يجدون لديهم من المؤن ما يكفي لإطعام السبي ، فينادون عليه ، ويبيعونه جماعات وبأثمان زهيدة ، ويعود الجندى أحياناً وهو يسحب وراءه عشرات الجوارى . ولسنا نغالى إذا قلنا إن هذه المعارك وما شابهها من المواقع التي عنفت في أروبة بين الأقاليم المختلفة كانت منابع ذهبية للتجار من النخاسين . فيسيرون وراء الجيوش مرافقين لها ، وفي حوزتهم كل ما يحتاجون إليه في تدبير شؤون السبي ، حتى إذا أسفر القتال عن وجهه ، وتبين الغالب من المغلوب ، أقبلوا على المنتصر ، واشتروا منه الرجال والنساء والأولاد ، فوضعوا القيد في الأرجل أو الأعناق ، وقادوهم إلى أسواق الرقيق حيث يبيعونهم بأثمان باهظة .

لاقى هؤلاء النخاسون في العربى فاتحاً سخياً ، ولا سيما في الفتوح الأولى ومواقع الهند والروم . ولكن هذا العربى بعد أن كان مصدراً من مصادر الرقيق أخذ يعتمد على النخاسين الجوايين في أطراف المعمور لشراء الجوارى ، وبنوع خاص على يهود الأندلس الذين كانوا يتوغلون في أروبة وينتقلون

إلى روسية أحياناً ، فيحملون من هناك جماعات من الجوارى
السلافيات والجرمانيات اللاتى عرفن فى بلاد العرب باسم
الصقليات . وقد صادفن سوقاً رائجة لبياض بشراتهن ، وطول
أجسامهن ، ولما تحلين به من الجمال المانع ، فترفن فى
معيشتهن ، وحفلت حياتهن بالشهى من المطعم ، والشفيف
من الملبس ، والرفيع من المقام ، والكثير من الإعزاز والإكرام .
توغل بعض النخاسين فى بادية تركستان ، واشتروا هناك
الفتيات من آبائهن ، ونقلوهن إلى سمرقند حيث عنى بشؤونهن
إلى أن برزت معالم الجمال فيهن ، وهذبوهن على ما يحب
أسياد بغداد والبصرة ودمشق والقسطنطية ، فدفعوا بهن الأثمان
المرتفعة ، وهذا النوع من أشهر الأنواع وأفضلها . وكان بعض
العمال يجعلون فى خراج الأقطاع الذى يحكمونه جماعات من
السبايا ، يوجهونهن إلى الخليفة ، منهم ابن طاهر الذى أهدى
الخليفة المتوكل هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف (١)

إلى جانب هذين المصدرين : الأسر والشراء ، مصدر ثالث
أقل أثراً منهما ، هو الرقيق المسلم الذى كانت تستولى عليه جماعة
القرامطة . وهى فرقة هدامة فلسفية دينية ظهرت فى أواخر
القرن الثالث الهجرى ، وعمرت طويلاً فى الطرف الجنوبى من

شبه الجزيرة . كانت تعتقد أنها وحدها الفرقة المؤمنة فتستبيح دماء المسلمين . وتأخذ من يقع في يدها من النساء والرجال والأولاد أسرى . وتبيعهم بيع الأرقاء . وقد قطعوا طريق الحاج عام ٣١٢ هـ (٩٢٤) م فقتلوا كثيراً من الرجال ، وأسروا بعضهم ، وأخذوا خمسمائة امرأة . وانسحبوا بالجميع إلى مقرهم في هجر . يضاف إلى هذا كله المولدات الشهيرات في مجالس الأدب والغناء اللواتي ولدتهن الجوارى الجليات في بلاد الإسلام ، فنشأن نشأة محلية ، وتحلين بالمحبيب من الحصال ، والحميل من الفنون . وأصبح لمن مناعة العرييات من حيث دوام جمالهن . ودل الأعجميات من حيث البراعة في أسر قلوب موالين . وبهؤلاء استهينت الأموال ، فهدرت بدون حساب ، ولأجلهن غالى البزازون والعطارون في أسعار سلعهم ، وحيكت المؤامرات . وبهن تدله العمال والأمراء والقواد والخلفاء . فإذا وقعت إحداهن في يد نخاس تفنن في تزيينها وتعطيرها والدعوة لها ، وحافظ عليها محافظته على مقلتيه ، لما يأمل من ورائها من مال وفير . وربح جزيل ، يغنيه عن عناء السفر البعيد في السعى والتفتيش .



أخاديع النحاسين

كانت النحاسية من التجارات الرائجة . لا تخلو مدينة من المدن الكبيرة من سوق لها ، تبنى فيها البيوت ، ويؤتى إليها بأنواع الرقيق المختلف المصادر والألوان والأجناس ، في حين أن عرض الجوارى في الأسواق يحط من قدرهن ، لأن البارعات في الجمال والفنون لا ينزلن هذه المنازل المهيئة ، وإنما يسعى وراءهن ، وترسل الرسل في التفتيش عنهن . لذلك كانت هذه الأسواق تنحصر بالرقيق المعتدل الجمال ، ويندر أن يكون في النساء حسناوات أو فنانات .

تقع دار الرقيق في بغداد قرب دجلة في الجانب الغربي ، حيث بقيت آثارها بادية إلى القرن الثالث عشر للميلاد^(١). وكان النحاسون يحتالون في إبراز جمال الجوارى المعروضات هناك ، وفي إخفاء عيوبهن . وقد كتب بعض العلماء رسائل في حيلهم وخدعهم ، وفي فن تقليب الجوارى لمعرفة الطبيعي من المصطنع ، بعد أن غالوا في تمويه ما يريدون ستره عن عين المشتري . فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء وحمروا الحدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه

(١) يوسف غنيمه - تجارة العراق قديماً وحديثاً ص ٥١ - بغداد .

المتعقعة . وأعدموا الوجوه شعر اللحى . وأكسبوا الشعور الشقر
 حالك السواد ، وجمدوا الشعور البسطة . وبيضوا الوجوه المسمرة ،
 ودملجوا السيقان المعرقة ، ورضنوا الشعور الممرطة ، وأذهبوا
 آثار الوشم والحدري والنمش والحكة . يقول بعض النخاسين :
 « ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة » . ومن
 عاداتهم تطويل الشعور بأن يصلوا في طرفها من جنسها . وتنصيع
 الأسنان بالسواك وبالأشنان والسكر وتحيق الصيني أو الفحم
 أو الملح المدقوق . ومن وصاياهم للجواري أن يتبرجن للمشتري
 ويختفين منه أخرى . فإن هذا مالك للقلوب وأن يدارين
 الشيوخ ، والناغرى الطباع ، ويستملنهم ويتجنبن الشباب .
 ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم .

كانت الجواري ينخضبن حواجبهن بالدامك ، وأطرافهن —
 إن كانت الجارية بيضاء — بالخصاب الأحمر ، وإن كانت صفراء
 بالأسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الضد
 بالضد (١)

(١) آدم متر — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ١ ص
 ٢٧٠ — ٢٧١ ترجمة أبى ريده .

أنواع الحوارى

وجعل الكتاب الاختصاصيون منهم أنواعاً ، وميزوا كل نوع عن الآخر بذكر فضائله ونقائصه . وفرقوا بين الحوارى كما يفرق علماء النبات والحيوان المعاصرون موضوع دراساتهم فى مختبراتهم ومؤلفاتهم ، فلاحظوا أن للهنديات حسن القوام ، وسمرة الألوان ، وحظاً وافراً من الجمال مع صفرة وشفاء بشرة ، وطيب نكهة ، ولين نعمة ، ولكن الشيخوخة تسرع إليهن ، وهن يصلحن للولد . وأن القندهاريات فى معنى الهنديات والسنديات ، ينفردن بدقة الحضور وطول الشعور . . . والبربريات مطبوعات على الطاعة ، نشيطات للخدمة ، ويصلحن للتوليد ، لأنهن أحذب الإناث على ولد . ويقول أحدهم إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهى بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج ، وبمكة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأدبت به ، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات ، وخنث المكيات ، وآداب العراقيات ، واستحقت أن تخبأ فى الجفون ، وتوضع على العيون . وأن الزنجيات مساوئهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحددت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ، وخيفت

المضرة منهن : والغالب عليهن سوء الأخلاق ، وكثرة الهرب .
وليس في خلقتهن الغم ، والرقص والإيقاع فطرة هن ، وطبع
فيهن . . . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها
وضعفها . لا يصلحن للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن
غير البلاد التي نشأن فيها . . . وأن البجاويات مذهبات الألوان ،
حسناوات الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جوارى
متعة . . . وأن التركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعومة ،
وعيونهن مع صغرهما ذات حلاوة ، وقدودهن ما بين الربع
والقصر ، والطول فيهن قليل ، وهن كنوز الأولاد ، ومعادن
النسل . . . والروميات بيض شقر سباط الشعور : زرق العيون
عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصفة ووفاء وأمانة . . . وأما الأرمنيات
فإن العرب يلصقن بهن أقبح الأوصاف وأشنع الصفات ،
ونكتفي بالإشارة إليها دون التفصيل (١) .

أسواق الرومان

عرفت المدنات القديمة والقرون الوسطى في أروبة أمثال
هذه الأسواق التي تعرض فيها سلع الجمال . وأشهرها تلك
التي نظمتها الجمهورية الرومانية في العاصمة والمدن الكبرى ،

(١) الحضارة الإسلامية عن ابن بطلان .

وجعلت لها شروطاً وقوانين . وأرغمت القيانين على التقيد بها . ليحولوا دون خداعهم الشارين ، كما أنها حظرت عليهم أن يشتروا الأحرار أو يبيعوهم ، غير أن هذه القوانين كانت تتوارى في الأزمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية فيسعى الأحرار إلى هذه الأسواق ويبيعون أنفسهم وأولادهم ونساءهم .

من الشروط التي وضعها المشرع الروماني للأسواق الرسمية أن تدهن أرجل الرقيق بالأبيض ، أي بعلامة الاستعباد . وأما القواد فإنهم يستعملون الطبشور طلباً للإسراع لكثرة عددهم ، ويعرضون جماعات جماعات في مكان مرتفع أمام الجمهور ، أما إذا كانوا من الشخصيات السياسية المعادية فيجعلون في قفص كبير . ويعلق أحياناً في رقبة كل منهم رق كتبت فيه خصائص حامله المميزة كالأهل والمولد والصفات والكفاءة وأحياناً النقائص . وبعد أن تتم عملية العرض يبدأ البيع ، فيكون بالمزاد العلني . وتقسم جماعات الرقيق إلى عبيد عمل ، وجواري منازل ، ويضاف إلى الفريقين بعض العجائز .

أما في الأسواق الخاصة فإن القيان الروماني يعرض بضاعته أمام الشارين ، ويأمر أرقائه بالركض والقفز والقيام ببعض الحركات الرياضية ، ويذكر صل كل منهم . وكان يغالي في تمويه العيوب وإبراز الحسنات أسوة بجميع القيانين العالمين ، فيجعل

البشرة الكامدة مشرقة ، والجسم انضامر ممتلئاً . ويتفنن الشارون في اكتشاف الخبوء فيما يعرض أمامهم ، ويحذرون الأخاديع ، ويرجعون إلى الرسائل المؤلفة في مثل هذا الباب . ولعل بعضها يشبه رسالة ابن بطلان في قلب الرقيق التي استقينا منها بعض الإشارات في مكان آخر . وكان القانون صريحاً في مثل هذه الحالة ، فيرى أن الحرس والصمم وقصر النظر والبرداء والنقطة والبخار الدال على مرض متأصل في الرئتين والعقم والإجهاض أو أي نقص في الأعضاء ، لا يعلن قبل الشراء ، هو سبب من الأسباب التي تقضي برد الجارية إلى القيان واسترجاع ثمنها منه .

أثمانهن

تختلف أثمانهن باختلاف أجناسهن ، والفنون التي يحسنها والعصر الذي يعشن فيه . ففي زمن الفتوح وتدفق السبايا على المدن تنخفض الأسعار لكثرة العرض وقلة الطلب . فتتحدد أثمانهن انحداراً عمودياً حتى تباع الجارية المليحة الفتية المثقفة بأقل من مائة دينار . أما إذا حل الحفاف ، ونضب معين الغزو والفتوح ، واعتمد النحاسون على المولدات والحليبات من البلدان القصية في تموين أسواق الرقيق فإن أثمانهن تعود إلى الارتفاع بحيث يصبح معدل ثمن الجارية التي سبق وصفها ألف دينار .

أما إذا شئنا أن نتبع الأثمان المرتفعة التي كان يتقدها الخلفاء والأمراء والعمال والقواد وأصحاب الثراء في الجوارى اللواتي يرقن لهم فإننا نقفز إلى عشرات الألوف . فسيّد أخو سليمان بن عبد الملك ابتاع مغنية مشهورة بحسن غنائها ، وروعة جمالها ، بمليون درهم ، أو ما يعادل سبعين ألف درهم^(١) ، واشترى يزيد ابن عبد الملك الأموي سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وابتاع الرشيد إحدى جواريه بمائة ألف دينار . ورغب محمد الأمين يوماً إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى ، فملاً له قارباً ذهباً ، وأرسله إليه . وفي الربع الأول من القرن الرابع الهجري اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولدة سمراء حلوة الغناء بثلاثة عشر ألف دينار ، وأعطى من دله عليها ألف دينار . وأشار الجاحظ في رسالة القيان إلى جارية تعرف باسم حبشية بيعت بمائة ألف دينار^(٢) وعشرين ألف دينار . ولا يغرنا اسم حبشية ، فإن كثيرين من الأسياد كانوا يطلقون على المفضلات من جواريههم أقبح الأسماء لحفظهن من العين الشريرة .

(١) العقد ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) رسالة القيان ص ٣٠ .

تكاثرهن

نخضئ في التقدير إذا قلنا إن عدد الجوارى كان قليلاً في المنازل العربية آنذاك . فإنهن يغلبن كثرة على الخرائر ، ويحصين بالملئات في منازل العظماء والأثرياء وأحياناً بالألوف . وفي زمن الحصب يزيد عددهن على عشر في منازل العامة . وكن من نفيس المتاع الذي يتباهاه الناس ، أو كما يقول الجاحظ بمنزلة المشام والتفاح الذي يتناقله القوم بينهم^(١) ، وقد أحصى عدد الرقيق الذي كان بحوزة الخليفة الراشدي الثالث فإذا به يزيد على ألف ، وكان معاوية يؤتي بالجوارى ، فيوزعهن على المقربين إليه ، ويعهد لبعضهن بالوقوف وراءه ليدفعن عنه الذباب ، وليروحنه بالمراوح ، أو ليأتينه بما يحتاج إليه من شراب . وعند ما زفت بوران إلى المأمون جعل والدها ، احتفاء بهذا الزفاف ، رقاعاً كتب فيها أسماء ضياع وجوار ، فمن وقعت واحدة منها في يده كان له ما فيها . فالجوارى من الهدايا المألوفة التي يهديها الخلفاء إلى الشعراء والمقربين إليهم . من ذلك أن ابن الأنباري كان يتردد على أولاد الراضى ، فمر يوماً بسوق النحاسين ، فأبصر بجارية تامة الأوصاف ، فحلت في قلبه محلاً وسيعاً . وتابع طريقه متحسراً عليها إلى دار أمير المؤمنين .

(١) رسالة القيان ص ٥٦ .

فسأله عما به ، فروى له الأمر ، فبعث من اشتراها له ، وحملها إلى منزله ، فلما دخله وجدها هناك^(١) . وأنفق بعض الخلفاء في إطعام جواريه كل يوم مائة دينار . وكان للمتوكل اثنا عشر ألف سرية ، ويختصر بعضهم هذا العدد فيجعله أربعة آلاف^(٢) ويختزله ثالث فيحوله إلى أربعائة ، وهو عدد فيه كثير من الاقتصاد والقناعة . ويزول عجبنا بعد هذا عند ما نقرأ ، في صفحات التاريخ ، أن بعض القواد كانوا يرثسون كتيبة من الجند مؤلفة بأجمعها من أبنائهم وذرائعهم . وعند ما تغلب صلاح الدين الأيوبي على الفاطميين عثر في قصورهم على اثني عشر ألف نسمة كلهم من النساء ، ليس فيهم من الذكور إلا الخليفة وأبناؤه . وقال ابن حزم في نقط العروس : « لم يل الخلافة في الصدر الأول من أمه أمة حاشا يزيد وإبراهيم ابني الوليد ، ولا وليها من بني العباس من أمه حرة حاشا السفاح والمهدي والأمين . ولم يلها من بني أمية بالأندلس من أمه حرة أصلا » . وليس هذا يعني أن جميع هؤلاء الجوارى كن للتسرى ، فإن بعضهن كن يصرفن إلى أعمال المنزل ، وبعضهن ينفقن أيامهن وجهدهن في وجوه متعددة نشير إليها في مكان آخر .

(١) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٩ .

(٢) المسعودي ج ٢ ص ٢٧٩ .

من أغرب ما يمكن أن نسمعه في عصرنا الحاضر أن من
 مميزات الخرائر الكاملات الصفات إهداءهن أزواجهن الجوارى
 المملحات من ماكن الخاص . فإن هارون الرشيد عند ما تدله
 بحب دنانير جارية جعفر البرمكى ، وألف التردد عليها اشترت
 زبيدة امرأته عشر جوار مملحات ، وأهدتهن إليه لتحوطه عنها ،
 وبينهن مارية أم المعتصم ، ومراجل أم المأمون ، وفاردة أم
 صانح (١) . وكذلك روى الجبرتي المؤرخ المصرى المشهور
 عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت . لصلاحها وبرها بزوجها ،
 تشتري له الجوارى من ماكن وتحلين بالذهب والثياب وتقدمهن
 لزوجها طلباً للأجر والثواب (٢) .

(١) الأغاني ج ١٦ ص ١٣٧ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٨٢ ، زيدان — تاريخ التمدن الإسلامى